

الدليل الخامس

العصمة من القتل

بعد بحث طويل عن تبيان مصدر القرآن ، رأينا أن القرآن وعد محمداً وعوداً كثيرة واستطاع تنفيذها لأنها صادرة عن قوة فعالة وأعظم هذه الوعود ، هذا الوعد الخطير وهو العصمة من القتل ، والحماية لشخصية الرسول ، على الرغم من تضافر الحوادث المبيته لهدر دمه ونرى القرآن بعده قائلاً ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾^(١) .

إن هذا وايم الله ضمان لا يملكه بشر ، ولو كان ملكاً محجباً تسير الحفظة من بين يديه ومن خلفه ، فكم رأينا ورأى الناس من الملوك والعظماء من اختطفتهم يد الغيلة ، وهم في مواكبهم ، يحيط بهم الجند والأعوان ، ولكن انظر مدى ثقة الرسول بهذا الوعد : « روى الترمذي والحاكم عن عائشة قال : كان النبي يُحرَس بالليل ، فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس وقال : يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله » وحقاً لقد عصمه الله منهم في أكثر

(١) المائدة/١٧ .

من خمسة مواضع كان خطر الموت أقرب إليه من شراك نعله ، ولم يكن له فيها عاصم إلا الله وحده .

ومن ذلك ما رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة ورواه مسلم في صحيحه عن جابر قال : كنا إذا أتينا في سفرنا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ فلما كنا بذات الرقاع نزل النبي تحت شجرة ، وعلق سيفه فيها ، فجاء رجل من المشركين ، فأخذ السيف ، فاخترطه وقال للنبي ﷺ : أتخافني ؟ قال : لا . قال : فمن يمنعك مني ؟ قال : الله يمنعني منك ، ضع السيف ، فوضعه . وحسبك أن تعلم أن هذا الأمن كان في الغزوة التي شرعت فيها صلاة الخوف .

ومن ذلك هجرته بعد اتفاق القرشيين لقتله ، وإجماعهم على ذلك ، وبدأ التخطيط ولكن العصمة حالت بينهم وبينه فقال ابن إسحاق :

لما رأَت قريش أن رسول الله قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم ، بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، وعرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة فحذروا من خروج رسول الله ﷺ ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون ما يصنعون في أمر رسول الله حين خافوه . فلما اجتمعوا جعلوا يقلبون وجوه الرأي فيما بينهم . . .

أحبسونه في الحديد ويغلقون عليه باباً ثم يتربصون به ما أصاب أشباهه من الشعراء . . . ؟ ولكن هذا الرأي لم يلق سمياً ، فقد خافوا أن يأتي إليه أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فيخلصوه وابتزعه من بين أيديهم . . . أخرجونه من ديارهم ثم يتركونه يذهب حيث شاء . . . ؟ ولكن هذا الرأي كذلك لم يلق أذناً صاغية ، فقد خافوا حلاوة منطقته ، وسحر بيانه وقدرته على اجتذاب القلوب مما يجعل له أنصاراً في كل مكان يذهب إليه ، فينتشر أمره ويشتهد ساعده ، ثم يكون هو ومن يناصره قوة تهدد أمنهم وطمأنينتهم . . . أقتلونه . . . ؟ ولكن كيف يقتلونه وقد أحاطه بنو عبد مناف من جميع نواحيه ؟ ومن أي قبيلة يمكن أن يكون القاتل ؟ وأي قبيلة تستطيع أن تتصدى لعداء بني عبد مناف ؟ وما زالوا يقدرون ويدبرون ، ويتبادلون وجوه الرأي فيما بينهم حتى اتفقوا على أن يقتلوه بطريقة مأمونة العاقبة . ذلك أن يختاروا من كل قبيلة فتى جلدأ شجاعاً ثم يذهبوا إليه فيضربوه جميعاً بسيوفهم - ضربة واحدة - فيقتلوه ، فيتفرق بذلك دمه في القبائل كلها ، وإذن لا يستطيع بنو هاشم أن يقاتلوا العرب جميعاً ، فيرضون بالدية ، فيؤدونها إليهم . وبذلك ينتهي أمر محمد ودينه ، وتعود مكة إلى ما كانت عليه من الأمن والطمأنينة وجمع الشمل .

وهكذا دبروا الخطة ورسموا خطوطها ، على أن ينفذوها ليلاً ، ولكن لله تدبيراً فوق تدبيرهم ويداً فوق أيديهم ، فقد أوحى

الله إلى رسوله بما دبوا خفية ، وأعلمه بما كادوا له من كيد ، وأذن له بالهجرة إلى المدينة ، وعرف وقدر أن قريشاً ستوثق الحصار حول داره في الليل ، لتقطع عليه طريق الفرار ، ولا بد أنها سترصد أفواه الطرق ، ومنافذ السير حتى لا يستطيع الخروج من مكة ، وستبذل لتنفيذ خطتها كل جهودها ، وخرج ليلاً بعد أن وضع ابن عمه علياً رضي الله عنه في فراشه تمويهاً للعدو ، وليعطي الناس بقية الودائع التي كانت لأهل قريش ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مكانته من قومه وعظم أمانته .

وهكذا تمت الهجرة ، وفتيان قريش يرصدون دار رسول الله ليقتلوه عند خروجه ، فليس من عادة العرب أن يقتلوا شخصاً في عقر داره ، وتمت العصمة للرسول من القتل ونزلت الآية التي تصف هذه المؤامرة التي أحيكت حول رسول الله عليه الصلاة والسلام : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ [الأنفال : ١٠] .

وكان خروجه في وسط الليل ، والليل مخيم على الفتية الشباب بأستاره . وهذا ما بينه القرآن في قوله : ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشىناهم فهم لا يبصرون ﴾ [يسى : ٧] .

وانطلق رسول الله إلى الغار عاملاً بالأسباب ، ليرشد البشرية

من بعده إلى قيمتها . . . وشاهد الكفار الغار ، ولكن العصمة لاحقته هناك ، فلم يدخلوا إليه على الرغم من وصولهم إلى بابه ، وهنا نرى ثبات رسول الله واطمئنانه ، وكيف أن السكينة قد غمرته ، واليقين ملاً قلبه ، وأحاطه الهدوء من كل جانب ، وكل هذا يدل على مقدار ثقته ويقينه بالعقيدة التي يناضل من أجل تبليغها . . .

ومما يروى أن فتيان قريش لما وصلوا إلى الغار ، وسمع أبو بكر - صاحبه في السفر - ديبب أقدامهم إزاءه ، اشتد خوف أبي بكر . . . لا على نفسه ولكن على رسول الله . . . حتى بكى . . . فقال يا رسول الله : لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا . . . !! فهذا رسول الله من روع أبي بكر وقال له : لا تحزن إن الله معنا . . . ما ظنك في اثنين الله ثالثهما^(١) . . .

ونزلت الآية تفصل هذه المحاورة اللطيفة في قوله تعالى : ﴿إِلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة

(١) اليقين الذي تمكن من قلبه الكبير ، وإيمانه بالعصمة دعاه لقوله لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ومعية الله كانت الحجاب للكفار الذين وصلوا إلى الغار وهي معية الحفظ والطمأنينة . والله يرى ولا يُرى ومعية الله لمحمد ﷺ حجب الكفار عن رؤيته .

الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴿ [التوبة : ٤٠] .

وهذا كله ليدل على عمق اليقين لدى رسول الله ، وهل من المنطق السليم أن يخلق الإنسان فكرة ، ثم يصرح بها لحماية نفسه ، ويصدر الآيات بالعصمة لذاته . وأيم الله لو كان محمد مختلفاً ذلك لشدد الحماية على نفسه ، ولطلب من أتباعه بآيات كثيرة أن يدافعوا عنه أكثر من دفاعهم عن عقيدتهم ، بل ثبت أن القرآن صرح بأن محمداً ما هو إلا رسول فإن مات أو قتل فإن الله حي باق وأنى لإنسان يستطيع تعظيم ذاته ثم يهون من أمر نفسه ، ولا تهمة حياته ، بل يأمر الناس بأن يتركوا حراسته ، وهذا عكس ما نشاهده من المصلحين أصحاب العقائد الوضعية ، فهم يحاولون الإكثار من الحرس حفاظاً على حياتهم وأنفسهم . . .

ومن حوادث العصمة هذه الحادثة التي يرويها الثقات « وهي أن أبا جهل - وهو من أشد خصوم رسول الله - قال : يا معشر قريش إن محمداً قد أبى ما ترون من عيبه ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وسب آلهتنا ، وإني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم !! . . قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبداً ، فامض لما تريد . فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف ، ثم جلس لرسول الله

ينتظره ، وغدا محمد كما كان يغدو كل يوم ، فكان إذا صلى ، صلى بين الركن اليماني والحجر الأسود ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، وقام محمد لصلاته ، وقد غدت قريش ، فجلسوا في أنديةهم ، ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه ، رجع منهزماً منتقماً لونه ، مرعوباً قد يبست يدها على حجره حتى قذف الحجر من يده ، وقامت إليه رجال قريش ، فقالوا له : ما لك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه ، عرض لي دونه فحل من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته (القصرة أصل العنق يعني بذلك ضخامة رقبته وطولها) ولا أنيابه لفحل قط ، فهم بي يريد أن يأكلني !! . . .

فقال ابن اسحق : فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال : ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه .

وأيم الله هذا دليل آخر من أشد رجل حاقد على دعوة محمد ، دليل من أنصع الدلائل على أن الحق الذي جاء به محمد ليس من عنده ، وإنما هناك يد خارجية ، وقوة إلهية فوق قوته تدافع عنه ، وتحميه ، وإلا كيف نفسر هذه الحادثة الموثوقة ، التي جرت في ربوع قريش . وصار بعد ذلك أبو جهل مهان المكانة ، ضعيف

القيمة ، واتهم بالجبن والتردد ، ولو قيل إن هذا ليس صحيحاً فمن منعه من ضرب محمد . . ؟ أما كان أشد الحاقدين عليه حتى إنه قال : لقد سقيت بغضاً لابن عبد المطلب لو سلط البحر عليه ما أطفأه . . من منعه إذن من قتل رسول الله . . . إن لم تكن العصمة . . . فليجب المكابر الذي لا يرضى بهذه الحادثة . . . إن كان لديه جواب مقنع .

ومن محاولات اغتيال الرسول عليه الصلاة والسلام ، ما حاكه اليهود ضده في المدينة من مؤامرات للتخلص منه من أجل مصالحتهم وزعامتهم ، ومما يروى (أن رسول الله خرج إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر . . . للجوار الذي كان رسول الله قد عقده لهما وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف . فلما أتاهم رسول الله يستعين في دية ذينك القتيلين ، قالوا : نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله إلى جانب جدار من بيوتهم قاعد - فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه ، فانتدب لذلك عمرو بن جماش - أحدهم - فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال ، ورسول الله في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم فجاءه الخبر من السماء بما دبر القوم ، فقام وخرج إلى المدينة ؛ فلما استلبث النبي أصحابه ،

قاموا في طلبه ، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة ، فسألوه عنه ، فقال : رأيتُه داخلًا المدينة ، فأقبل أصحاب الرسول حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم بما أرادت اليهود من الغدر به ، فأمر ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم .

وهكذا هم اليهود بالجريمة المنكرة دون أن يظهروا له شيئاً ، وكل ذلك أثناء محادثته لهم ولكن العصمة . . . العصمة ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ . وإن هذا الإنسان الذي لم يأت بخير من وجدانه ولا بإصلاح فردي وإنما جاء مرسلًا بعقيدة شاملة يحمل في طياتها الوعد بحمايته وقد تم له ذلك ، ولو كانت فردية بشرية لما استطاعت حمايته .

وهذه المحاولة الأخيرة التي تمت في معركة أحد ، ها هو ذا يقاتل أقرب الناس إلى العدو والموت قريب من الجميع ، وما جرت هذه المعركة إلا للخلاص من محمد ، وكان علي رضي الله عنه يقول : كنا إذا حمي الوطيس احتمينا برسول الله ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . إن هذا هو اليقين لأنه واثق بأن العصمة والتأييد أتت من خالق الموت والحياة ممن بيده مقاليد الكون . .

وها هو في غزوة حنين ، يركض ببغلته إلى جهة العدو ، فلما أقبل المشركون وأحاطوا به لم ينهزم بل نزل عن بغلته وأخذ يقاتل وكأنه يعرض نفسه لنبالهم وأخذ يصيح : أنا النبي لا كذب أنا ابن

عبد المطلب . (حديث رواه الشيخان) .

فيالها من حياة ملؤها المخاطر ، ولكن وصل إلى شاطئ
السلام ، وحقق الله له وعده وعصمه حتى يبلغ الرسالة ، ويؤدي
الأمانة ، وينطق كلمة الكمال .

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت
لكم الإسلام ديناً ﴾ .

وليعلمن للبشرية بأن الإسلام هو الدين الحق وخاتمة
الشرائع ..

ولا بأس أن نختم هذا الفصل بهذه الحادثة الرائعة وهي أنه بعد
وفاة عمه أبي طالب دخل إلى البيت الحرام فنثر بعض القرشيين
التراب على رأسه ، ومن ثم دخل الرسول بيته والتراب على رأسه ،
فقامت إليه إحدى بناته تغسل التراب وهي تبكي !! ... فقال لها :
يا بنية لا تبكي ، فإن الله مانع أباك ...

وايم الله ما يقول هذه الكلمة إلا نبي مرسل ، وسع التاريخ في
نفسه الكبيرة قبل أن يوجد التاريخ في الدنيا ، فكلمته هي الإيمان
والثقة لأنه يتكلم عن يقين .

﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ .